الأدب الحديث

المحاضرة الثانية:

الشعر العربي الحديث

ليس بميسور علينا أن نضع تعريفا ثابتا و محددا لمفهوم الشعر ، و بخاصة في الشعر العربي الحديث الذي تعقدت فيه الحياة ، و تشابكت أمورها و تباينت مشاربها ، و لكن الشعر في جوهره حركة فنية في قلب الوجود المتحرك و النامي في ديمومة لا تتوقف ، يأخذ فاعليته من روح الحياة ، كما يأخذ قدرته على التأثير و النفاذ من قدرتها على الاستمرار.

و على ذلك فالشعر خلق فني يأخذ لونه و طعمه و نكهته ، بل و اتجاهه من مجموعة من التجارب الشعرية التي يعايشها شاعر أو شعراء معينون في فترة زمانية معينة و في بيئة مكانية خاصة .

و لما كانت حركة الزمن لا تتوقف ، و قضايا الحياة و الكون ، لا تتخذ طابعا موحَّدا ، لا في إطارها العام ، و لا في وجهها الخاص الذي يكتسبه في لقائها مع الشاعر ، فإن طبيعة الشعر ، في مفهومه و غاياته لابد أن تتغير من عصر الى آخر ، بل و من شاعر لآخر، و منه فإن مفهوم الشعر يختلف من قصيدة الى أخرى ، فكل قصيدة لها كيانها الخاص المتفرد تنبع قوانينه الفنية من داخله مرتكزة على أرض التجربة الشعورية التي نبتت منها [1] .غير أن نظرة القدامى الى مفهوم الشعر لم تكن على هذا القدر من الفهم العميق لماهيته.

1 – مفهوم الشعر:

 طرأ على الشعر العربي في السنوات الخيرة تطور جذري لا عهد له بمثله ، كان نتيجة مفهوم جديد للشعر ، و هو لا يزال يتسع و يعمق و يضرب أصوله في التراث حتى يجعل الحد الحاسم الفاصل بين المفهومين القديم و الجديد حداً حاسما و فاصلا ، كان المفهوم القديم للشعر يتمثل في التعريف المأثور«الشعر هو الكلام المقفى الموزون » ثم أضاف إليه المعاصرون قول الزهاوي:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه ** فليس خليقا أن يقال له شعر

أو قول شوقي شارحا سبب هذا «الهز»:

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة ** أو حكمة فهو تقطيع و أوزان

بهذا كان الشعر حتى منتصف القرن العشرين ، صناعة تتوخى هز الوجدان و العقل عن طريق الوزن و القافية من جهة و الذكرى و العاطفة و الحكمة من جهة أخرى .و هي نظرة تجعل للشعر مهمة تعليمية أو إخبارية أو وصفية ، كالنثر سواء بسواء.

[1] - د. عدنان حسين قاسم – اللأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر في مصر ص25ط1 المنشأة الشعبية للنشر و التوزيع – ج،ع، الليبية 1981.

أما المفهوم الحديث للشعر ، فهو فن ، و الفن لا غاية له سوى التعبير الجميل عن الذات في لحظة الكشف و الرؤيا .إنه نرسيس مجاني ، لا عقلي ، بمعنى أنه يخاطب العقل و لا يخضع لقوانينه ، و مهمته التلقائية الفريدة هي النفاذ فيما وراء الظواهر المتناقضة المشوشة المبهمة ، ليكشف بالحدس و الرؤيا أسرار الوجود الحقيقي المليء بالانسجام و النظام و المعنى . و هو يتوسل الى ذلك اللغة ، و لذلك كان الشعر لغة ، أي وليد مخيلة خلاقة لا تعمل عملها الفني إلا باللغة ، و هي مادته و جوهره ، وهي شكله و مضمونه معاً ، فلا انفصال بينهما في عملية الخلق و لا تغليب لواحد منهما على الآخر ، ولا خضوع إلا لطبيعة العمل الفني الذي يفضل حريته و يكره التشويش و الفوضى[2].

و الشعر أيضا رؤية فنية متفردة و منغمة تنغيما فنيا متناسقا و منتظما في إيقاعات خارجية ، و ترنيم داخلي يجعل التركيب اللغوي مقصودا في ذاته يتعذر ترجمته أو نقله الى تركيب لغوي آخر لأن هذه التراكيب في كليتها مرتبطة ارتباطا عضويا بالرؤية الشعرية ، تلك الرؤية التي لا تنبع من صورة و لا من تركيب ، و لا تتمثل في صورة أو تركيب مستقلين إلا بالقدر الذي ينتميان فيه الى الصورة الكلية التي تحمل في مساماتها روح العمل الشعري[3].

على أساس هذا المفهوم الجديد نشأت حركة شعرية ثورية في الشعر العربي لحقت بالشعر المعاصر فى آداب الشعوب الأخرى ، و أعطت نتاجا اتسم بمستوى عال ، فسمى بعضهم هذه الحركة ، حركة الشعر الحر و آثر بعضهم الآخر تسميتها بحركة الشعر الجديد باعتبار أن الحداثة في الشعر العربي ظهرت تباشيرها منذ مطلع هذا القرن عند شوقي و مطران مرورا بالرابطة القلمية و جماعة أبولو جماعة الديوان. و سواء كانت هذه التسمية أو تلك فإن الحداثة في الشعر إبداع و خروج به على ما سلف ، وهي لا ترتبط بزمن . فما نعتبره اليوم حديثا يصبح في يوم من الأيام قديما ، و كل ما في الأمر أن جديدا ما طرأ على نظرتنا الى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف.

و الحداثة في الشعر لا تمتاز بالضرورة على القدامة فيه ، و لكنها تفترض بروز شخصية شعرية جديدة ذات تجربة حديثة معاصرة .و هذه التجربة فريدة تعرب عن ذاتها في المضمون و الشكل معا ، فليست مجرد أفكار و معاني في الذهن ، تحشد لها الصور الخارجية و الألفاظ البيانية ، بل تخاطبك بوداعة الطفل و شغف المؤمن و حرارة العاشق ، و تواضع الواثق من نفسه ، و تنتصب أمام عقلك و وجدانك بكل فرادتها ، و بكل انكسارها و بكل وحدتها في حضرة المغلق و المجهول و المتناقض ، و بكل تعاستها في انتظار العابر و الآتي ، و بكل انكسارها و انتصاراتها في وجه الحياة و الموت ، و هذا لا يتاح لشاعر إلا بالألم الكياني الرائع كألم الولادة ، فإذا أنت أمام خليقة فنية متكاملة لا تطيق منك العبث بحرف منها و لا أنت تجرؤ على أخذها بعنف ؛ فهي كالحقيقة الساطعة المتجلببة بثوب يتلألأ ببياض الجدة الذي لا عهد لك بمثله ، تظللها غمامة التراث ، فتخرج منها دعوة صارخة الى عالم جديد.

و الحداثة نجدها في كل شيء لا في الشعر وحده ، فهي إذا موقف كياني من الحياة في المرحلة التي نجتازها . فهي ليست أشكالا يقتبسها الإنسان أو زيًّا يتزيى به ، لأن المهم هو ما وراء الأشكال و الأزياء ، هذا الماوراء هو ما نسميه بالعقلية . فإما أن تكون ذا عقلية حديثة أو لا تكون ، بمعنى أن تأخذ بالجوهر لا بالمظهر.

---

[2] - يوسف الخال . الحداثة في الشعر - ص13،14 ط1 دار الطليعة بيروت ، لبنان 1978.

[3] - د. عدنان حسين قاسم المرجع السابق ص26.

و الخلاصة أن الحداثة في الشعر لا تعتبر مذهبا كغيره من المذاهب ، بل هي حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم و لا تكون وقفا على زمن دون آخر. و حيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها ، فتتبدل نظرتنا الى الأشياء ، يسارع الشعر الى التعبير عن ذلك بطرائق خارجة على السلفي و المالوف[4].

2– مفهوم القصيدة :

من الشعراء من يظن أن في قدرته أن يخبرنا بما يجول في خاطره ، فيعمد أحيانا الى تدوينه نثرا على ورقة أو في رسالة الى صديق .و لكن ما أن ينتهي من قصيدته حتى يجد أن ظنه خاب لأن ما أخبرنا به شيء و ما أخبرتنا به القصيدة شيء آخر.ذلك أن القصيدة ، و هي خليقة فنية جماليه لا توجد بمعزل عن مبناها الأخير فما هي معنى محض و لا هي مبنى محض ، بل معنى و مبنى معا .

إن امتحان أصالة الشاعر و موهبته الفنية مرهونة بعاملين اثنين هما:

ا – قواعد اللغة و أصولها :

ب – الأساليب الشعرية المتوارثة في تاريخ هذه اللغة الأدبية.

فإن هو خضع لهما تمام الخضوع ، خرجت قصيدته مبذولة جامدة آلية ، و إن تمرد عليهما تمام التمرد، خرجت قصيدته هذرا لا حضور له .

أما الصحيح ، فهو أن يعترف الشاعر الأصيل الموهوب بقواعد لغته و أصولها و بمباديء الأساليب الشعرية المتأثرة بهذه اللغة و المتوارثة في تاريخها الأدبي و في الوقت ذاته يأخذ لنفسه قدرا كافيا من الحرية لتطويع هذه القواعد و الأساليب و نفخ شخصيته فيها .

و في هذا يهتدي الشاعر (بملكة الشعور) هذه الأخيرة هي التي تسدد خطى الشاعر خلال عملية الخلق في اختيار الألفاظ و الصيغ التعبيرية الملائمة ، و هي التي تنبهه في حال تجاوزه حدود حريته في التطويع .

فاللغة نظام يعتمد ككل نظام على بعض القواعد و الأصول التي لا غنى عنها، و إخضاع المعنى العفوي الغامض الخام لهذه القواعد و الأصول أمر محتم لتوضيح ماهيته، وهذا يصح كذلك على الأسلوب ، لأنه نظام قائم على بعض الأسس المحتمة ، و إخضاع المبنى له يفصل الشعر عن بقية أنواع الكلام ، مع العلم أن الأسلوب هو في الواقع قواعد مصطنعة تحتضن القصيدة و تعزلها مؤقتا عن الحياة لتتيح للشاعر أن يخلق لها حياة خاصة بها ، وفي حين أن بعض التمسك بقواعد اللغة و أصولها متطلب من جميع أنواع الكلام ، فإن التمسك أيضا و لو جزئيا بأحكام الأسلوب الشعري المتوارث هو الذي يجعل الكلام شعرا ، بل هو الذي يحول التمسك بقواعد اللغة و أصولها الى شيء يتيح للشعر على يد الشاعر المبدع أن يصبح أكثر من مجرد تعبير مألوف.

هكذا نرى أن ما دفع الشاعر الى الخلق ، يجب أن يجتاز عملية صراعية مع اللغة و الأسلوب قبل أن يخرج الى حيز الوجود شعرا سويا ، لا كلام فلسفة أو علم ، وعلى الشاعر في هذا الصراع أن يخرج سيدا منتصرا على حدود اللغة و الأسلوب المتوارث معا. و كلما احتدم الصراع نمت الفكرة البدائية الغامضة في الدقة و العمق و عظم الانتصار

[4] - يوسف الخال – المرجع السابق ص 15 و ما بعدها.

. و بقدر ما يكون الشاعر أصيلا يكون علمه بأن ما كانت عليه فكرته عند البدء هي غير ما صارت إليه عند الانتهاء ، إن فردية الشاعر و فرادة عمله تتحققان بقدرته على إنشاء لغة جديدة و طريقة جديدة في التعبير الفني بهذه اللغة ، فالأصول عامة و أما الفروع و ثمار هذه الفروع فهي الفردية و الفرادة .

إذن فكل قصيدة ناجحة لا تكون إضافة على التراث الشعري بل تغيير لغوي و شعري لهذا التراث [5] .

و القصيدة باعتبارها تجربة الشاعر هي قبل كل شيء بناء موضوعي ذو معنى ينعم بوجود خاص به ، و هذا البناء يتميز بالتضمين و تلاقي الأضداد و التلميح ، فبالتضمين تكتسب القصيدة الجدة و الطرافة ، و تعالج القضايا في ضوء تعقيداتها الحقيقية ، و بتلاقي الأضداد تكتسب القصيدة التوتر و الزخم و ترتفع عن مساق الكلام العادي و بالتلميح تكتسب القصيدة الضبابية و السرية اللتين تثيران في القارئ حب الاستطلاع و التشوق و التحدي و المغامرة في المجهول.

و حجارة هذا الموضوعي هي الألفاظ ، إلا أن الألفاظ في الشعر تومئ الي ما وراء المعاني فتضاف إليها أبعاد جديدة ، و بذلك تتجدد و تحيا و بغير ذلك تذبل و تموت، و لذلك كان الشعر ماء حياة اللغة، و كانت اللغة في معنى الشعر لا في مبناه فقط .

هذه الألفاظ تتركب في البناء الشعري على غير ما تتركب في النثر ، بل إن الشعر من شأنه أن يمنع الألفاظ من أن تتصرف تصرفها في النثر ، أي أن تفرغ معانيها مباشرة بلزوم جانب الوضوح و الخلو من التكثف و التعقيد ، و لذلك كانت العبارة الشعرية هي العبارة التي تتجنب تقرير حقيقة مجردة في الذهن.

ثم إن النظر الى القصيدة كبناء عضوي و موضوعي معا يفرض كونها كياناً مستقلا ذا قيمة جمالية و حظور فريد، وهذا يعني أنها تعلن عن نفسها أنها فوق المقارنة مع ما سبقها من الآثار الشعرية و أنها فوق متناول شرح الناقد ، فهي بهذا منفصلة عن التاريخ الأدبي فضلا عن النقد الأدبي .و لكن بإمكان القاريء (و الناقد) أن يعيد خلق القصيدة لنفسه و أن يدخل حرمها عن طريق النقص الذي لابد من أن تشكو منه كل قصيدة . فليس من عمل فني كامل تمام الكمال . و لذلك يُخشى دائما أبدا على القصيدة من أن تصبح ضحية الشرح و التشريح ، فتتهدد حصانة كونها تعبيرا متميزا عن سواه من التعابير.

إن القصيدة في نموها العضوي خلال عملية الخلق تقبض على الجانب الأعمق من التجربة دون سائر الجوانب ، أو بتعبير آخر تبلور التجربة و تصفيها في خلاصة ذات محور واحد تتفرع منه جوانب القصيدة و أبعادها، و للمبنى و المعنى معا أثر في عملية الخلق ، و لذلك تتنوع المباني الشعرية بتنوع معانيها ، و هو أمر فريد ينطوي على تكيف معين للغرض الخاص بكل قصيدة .و هي فرادة يحققها الشاعر بتطويع – لا بتهديم – الأساليب اللغوية العادية المألوفة في التراث الأدبي ، و يحدث هذا التطويع من دون أن يظهر في القصيدة الناجحة ، بل من دون أن يعلن نفسه للشاعر إلا بعد حدوثه.

[5] - يوسف الخال المرجع السابق ص18 و ما بعدها.

الأستاذ فتاني الميلود